بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

فهذه كلمات مختارات، وفوائد منتخبات، من كلام العلامة ابن القيّم في بيان الأسباب المعينة على مجانبة الآثام، والتخلّص من ملابسة الحرام، تشتدّ حاجة المسلم إلى معرفتها والعمل بها، وهي مذكورة في كتابه القيّم «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (102 إلى 111)، وقد زدت عليها ما رأيته مناسبًا من دليل شرعيٍّ، أو بيت شعريٍّ أوكلام عالم ربانيّ.

وأقول بين يدي هذه الكلمات: إن الله قد أمر عباده باجتناب الذنوب جميعها، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وخفيّها، فقال: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، ومعلوم أن الشيطان قد قعد لابن آدم كل مرصد ليصدّه عن سبيل الله، يثبّطه عن الطاعة، ويزيّن له المعصية، وهذا ما يجعل ترك المحرمات شاقّا على النفس، لا سيّما في زمان فشت فيه المنكرات، وتنوّعت فيه الشهوات، مع ما يصاحب ذلك من قلّة الناصح الأمين، وفَقْد الأخ الصالح المعين، فحينئذ لا يتمكن المؤمن من هجران السيّئات، والابتعاد عن المحرمات، إلا بعظيم مجاهدة، وشديد مكابدة. لكن مع ذلك كلّه، لا بدّ أن نعلم أنّه: «ما أمر الله سبحانه بأمر إلاَّ أعان عليه، ونصب له أسبابًا تمدُّه وتعين عليه، كما أنَّه ما قدَّر داءً إلاَّ قدَّر له دواءً، وضمن الشِّفاء باستعماله».[«عدة الصَّابرين» (ص96)].

وإليك ـ أخي المسلم ـ بيان تلك الأسباب التي تعينك ـ بإذن الله تعالى ـ على اتقاء السَّيِّئات والآثام، كما ذكرها ابن القيِّم الإمام.

① دعاء الله سبحانه، والفرار إليه:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك الدُّعاء؛ فإنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب».

وقال: «والدُّعاء من أنفع الأدوية، وهو عدوُّ البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخفِّفه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن» [«الدَّاء والدَّواء» (9، 11)].

وقال: «تعرُّضه ـ أي: العبد ـ إلى مَن القلوب بين إصبعيه، وأزمَّة الأمور بيديه، وانتهاء كلِّ شيء إليه على الدَّوام، فلعلَّه أن يصادف أوقاتَ النَّفحات، كما في الأثر المعروف: «إنَّ لله في أيَّام دَهْرِه نَفَحَات، فَتَعَرَّضُوا لنَفَحَاته، وَاسْأَلُوا الله أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ وَيُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ» لصحَّ هذا الأثر مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ، رواه الطَّبراني في «الكبير» (720)، والبيهقي في «الشُّعب» (1121)]، ولعلَّه في كثرة تعرُّضه يصادف ساعة من السَّاعات الَّتي لا يُسأل الله فيها شيئًا إلاَّ أعطاه».

قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سُورَةُ النَّمْلِ]، وقال عزَّ من قائل: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ].

② إجلال الله تعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع:

قال ابن القيِّم: «إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتَّة».

ففعلك المعصية وأنت تعلم أنَّ ربَّك مطَّلع عليك، لا يخفى عليه شيء من أمرك، يدلُّ على عدم تعظيمك له، وقلَّة حيائك منه، وقد قال جلَّ ذكره: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ نُوحٍ] قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في تفسيرها: «ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته».

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ» قال: قلنا: يا رسول الله! إنَّا نستحيي والحمد لله؛ قال: «لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ» [رواه أحمد (3671)، والتِّرمذي (2458)].

وعن سعيد بن يزيد الأنصاري أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! أوصني. قال: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ من الله عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلاً صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ» [رواه أحمد في «الزُّهد» (59)، والبيهقي في «الشُّعب» (7738)].

وقد يجتهد الواحد منّا في الاستخفاء من أعين النَّاس ليخلو بمحارم الله، وقد نسي أنَّ ربَّه معه أينما كان، لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]. فإيَّاك يا عبد الله أن تجعل ربَّك أهون من ينظر إليك، قال رجل لوهيب بن الورد: عظني؛ قال: «اتَّق أن يكون الله أهونَ النَّاظرين إليك».

ولقد أحسن من قال:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى
ولا أن ما يخفى عليه يغيب.

③استحضار محبة الله سبحانه:

قال ابن القيِّم: «مشهد محبَّته سبحانه؛ فيترك معصيته محبَّةً له، فإنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعٌ».

فما من مسلم إلاَّ وهو يقول: إنِّي أحبُّ الله، ولكن هذه دعوى لا قيمة لها حتَّى تقوم البيِّنة الَّتي تدلُّ على صدقها، لذلك قال ربُّنا جلَّ في علاه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ] فقد جعل سبحانه لمدَّعي محبَّته علامةً تدلُّ على صدقها، وهي اتِّباع نبيِّه ﷺ، ويكون ذلك بطاعته فيما به أمر، والانتهاء عما عنه زجر، ومعلومٌ أنَّ طاعة الرَّسول من طاعة الله سبحانه، كما أنَّ معصيته من معصيته، فمن أحبَّ الله صدقًا فلابدَّ أن تقتضي هذه المحبَّة الانتهاء عن محارم الله، وإلاَّ كان كاذبًا في دعواه، كما قال الشَّاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه
هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبُّك صادقًا لأطعته
إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع

فمحبَّة الله موجبة لطاعته وترك معصيته، ومن زعم أنَّه يحبُّ الله ولم يحجزه ذلك عن معصية الله فهو كاذب في دعواه.

④ مشهد النعمة:

قال ابن القيِّم: «مشهد النِّعمة والإحسان: فإنَّ الكريم لا يُقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنَّما يفعل هذا لئام النَّاس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته، حياءً منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربِّه، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بهذا فأقبح بها من مقابلة!».

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ]، فإذا كان من أحسن إليك من المخلوقين تستحيي أن تردَّ طلبه، وتتحرَّج من فعل ما يكرهه، فكيف يهون عليك فعله مع من تتقلَّب اللَّيل والنَّهار في آلائه، ولا تستغني طرفة عين عن إحسانه!

⑤ مشهد الغضب والانتقام:

قال ابن القيِّم: «مشهد الغضب والانتقام: فإنَّ الرَّبَّ تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضَّعيف».

قال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ الحِجْرِ]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [سُورَةُ البُرُوجِ]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، وقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ]، وقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ

فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ].

أفلا يكون لنا في هذه النُّصوص عظة وزاجر، نمنع النُّفوس بها عن مقارفة الفواحش والكبائر؟!

⑥ مشهد الفوات:

قال ابن القيِّم: «مشهد الفوات: وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدُّنيا والآخرة».

فالذُّنوب لها من الآثار والأضرار على العبد ما لا يعلمه إلاَّ الله، وذلك في الدُّنيا والبرزخ والآخرة، ولكنَّ أكثر الناس عن ذلك غافلون، قال سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 123]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ الشُّورَى]، وعن البراء بن عازب مرفوعًا: «ما اختلج عرق ولا عين إلاَّ بذنب، وما يدفع الله عنه أكثر» [رواه الطَّبراني في «الصَّغير» (1053)].

قال ابن القيِّم: «وهل في الدُّنيا والآخرة شرٌّ وداء إلاَّ وسببه الذُّنوب والمعاصي!» [«الدَّاء والدَّواء» (98)]، وقال: «والمقصود أنَّ عقوبات السَّيِّئات تتنوَّع إلى: عقوبات شرعيَّة، وعقوبات قدريَّة؛ وهي إمَّا في القلب، وإمَّا في البدن، وإمَّا فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم حشر الأجساد. فالذَّنب لا يخلو من عقوبة البتَّة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنَّه بمنزلة السَّكران والمخدَّر والنَّائم الَّذي لا يشعر بالألم» [المصدر السَّابق (271 ـ 272)].

وقد أسهب ابن القيِّم في بيان ما يُفوِّت العبد على نفسه من خير الدُّنيا والآخرة بموافقة الإثم، فمن ذلك: «حرمان العلم والطَّاعة والرِّزق وتعسير الأمور، إزاغة القلب وصرفه عن الحقِّ، وحشة بين العبد وربِّه، وبينه وبين الخلق، المعصية تزرع أمثالها وتولِّد أخواتها، تميت القلب، توجب اللَّعنة، تزيل النِّعم، وتحلُّ النِّقم، وشماتة الأعداء بالنَّفس وأخطرهم الشَّيطان، ونكس القلب حتَّى يرى

الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً، وضنك العيش فلا تقرُّ عينه بشيءٍ، سوء الخاتمة» [انظرها مفصَّلة مع آثار أخرى كثيرة لم أذكرها في «الدَّاء والدَّواء» (132 إلى 286)].

هذه عقوبات الدُّنيا فحسب، فكيف بعقوبات القبر وشدائد يوم البعث.

ولو لم يكن ما يفوت بسبب الذَّنب إلاَّ الإيمان لكفى ذلك اللَّبيب، قال ابن القيِّم: «ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان، الَّذي أدنى مثقال ذرَّة منه خيرٌ من الدُّنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة، فكيف يبيعه بشهوة تذهب لذَّتُها وتبقى تَبِعَتُهَا، تذهب الشَّهوة وتبقى الشَّقوة.

وقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» [رواه البخاري (2475)، ومسلم (57)]، وصح عنه أيضا: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان وكان كالظُّلَّة، فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان». [رواه أبو داود (4690)]».

⑦ مشهد العوض:

قال ابن القيِّم: «مشهد العوض: وهو ما وعد الله سبحانه به من تعويض من ترك المحارم لأجله، ونهى نفسه عن هواها، وليوازن بين العِوض والمُعَوَّض، فأيُّهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه».

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]، وصحَّ عن النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا للهِ إِلاَّ بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ». [رواه وكيع في «الزُّهد» (356)، وأحمد في «المسند» (23074)].

⑧ مباغتة الأجل:

قال ابن القيِّم: «مشهد المغافصة والمعاجلة: وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله عزَّ وجل على غرَّة، فيُحال بينه وبين

ما يُشتَهى من لذَّات الدُّنيا، وبينه وبين ما يُشتَهى من لذَّات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرَّها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلاَّ من جرَّبها».

لأجل هذا حثَّنا ﷺ على ذكر هاذم اللَّذَّات؛ الموت، فقال: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ؛ فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلاَّ وَسَّعَهُ عَلَيْهِ وَلاَ ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلاَّ ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ» [رواه الطَّبراني في «الأوسط» (8560)، وابن حبَّان في «صحيحه» (2982)، والبيهقي في «الشُّعب» (10560)].

فيا من غرَّه طول الأمل، وهو يُمَنِّي نفسه بالتَّوبة إلى أجل، أأمنت أن يدركك الموت وأنت مقيم على الذَّنب من غير وجل، فيختم لك بالسُّوء ولا تنفعك حينئذ الحسرة ولا النَّدم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

أما تخشى أن يبعثك الله يوم القيامة على الذَّنب الَّذي كنت مصرًّا عليه، ولم تجاهد نفسك على التَّوبة منه، فقد صحَّ في الحديث أنَّه: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» [رواه مسلم (2878)].

⑨ التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها:

قال ابن القيِّم: «التَّفكُّر في الدُّنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزوَّد منها إلى دار بقائه وخلوده أخسَّ ما فيها وأقلَّه نفعًا إلاَّ ساقطُ الهمَّة، دنيءُ المروءة، ميِّتُ القلب، فإنَّ حسرته تشتدُّ إذا عاين حقيقة ما تَزَوَّدَه وتبيَّن له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد ما يُعذَّب به وينالُه بسببه غاية الألم؟! بل إذا تزوَّد ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه كان ذلك حسرةً عليه وغبنًا».

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْقَافِ].

وهل أوقع العباد في معصية الله إلاَّ حبُّهم للدُّنيا وإيثارهم لها على الآخرة؟! لذلك تواتر عن السَّلف: أنَّ حبَّ الدُّنيا رأس الخطايا وأصلها.

ومن أراد أن يعرف قدر الدُّنيا وحقيقتها فليتأمَّل هذين الحديثين: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» [رواه التِّرمذي (2320)، وابن ماجه بنحوه (4110)].

وعن ابن عبَّاس أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصيرٍ قد أثَّر في جنبه فقال: يا نبيَّ الله! لو اتَّخذت فراشًا أوثر من هذا؟ فقال: «مَا لِي وَللدُّنْيَا؟! مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» [رواه أحمد (2744)، والطَّبراني في «الكبير» (11898)].

قال ابن القيِّم: «فتأمَّل حسن هذا المثل ومطابقته للواقع سواء، فإنَّها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئًا فشيئًا كالظِّلِّ، والعبد مسافرًا إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرةً في يوم صائفٍ لا يحسن به أن يبني تحتها دارًا، ولا يتخذَّها قرارًا، بل يستظلُّ بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرِّفاق» [«عدة الصَّابرين» (449)].

⑩ تفريغ المحل وهو القلب، وتخليته قبل تحليته:

قال ابن القيِّم: «أن يعلم العبد أنَّ تفريغ المحلِّ شرط لنزول غيث الرَّحمة، وتنقيته من الدَّغَل شرط لكمال الزَّرع، فمتى لم يفرِّغ المحلَّ لم يصادف غيث الرَّحمة محلاًّ فارغًا قابلاً ينزل فيه، وإن فرَّغه حتَّى أصابه غيث الرَّحمة ولكنَّه لم يُنقِّه من الدَّغل لم يكن الزَّرع زرعًا كاملاً... ولو فرَّغ العبد المحلَّ وهيَّأه وأصلحه لرأى العجائب، فإنَّ فضل الله لا يردُّه إلاَّ المانع الَّذي في العبد، فلو أزال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كلِّ صوب».

قال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ] «والقلب السَّليم معناه: الَّذي سلم من الشِّرك والشَّكِّ ومحبَّة الشَّرِّ والإصرار على البدعة والذُّنوب، ويلزم من سلامته ممَّا ذكر اتِّصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبَّة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبَّته تابعةً لمحبَّة الله، وهواه

تابعًا لما جاء عن الله» [«تيسير الكريم الرَّحمن» (564)].

وقال ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» [رواه البخاري (52)، ومسلم (1599)]، فدلَّ على أنَّ أولى الأعضاء بالإقامة والإصلاح، القلب الذي عليه مدار الفوز والفلاح.

⑪ المجاهدة وتعويد النفس عليها:

قال ابن القيِّم: «أن يعوِّد باعث الدِّين ودواعيه مصارعة الهوى ومقاومته على التَّدريج قليلاً قليلاً، حتَّى يدرك لذَّة الظَّفر، فتقوى حينئذ همَّته، فإنَّ من ذاق لذَّة شيء قويت همَّته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشَّاقَّة يزيد القوى الَّتي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قُوى الحمَّالين وأرباب الصَّنائع الشَّاقَّة تتزايد، بخلاف البزَّاز والخيَّاط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلِّيَّة ضعف فيه باعث الدِّين، وقوي فيه باعث الشَّهوة، ومن عوَّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد».

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سُورَةُ العَنكَبُوتِ]. فترك الذَّنب قد يكون عسيرًا في أوَّل الأمر، لكن بالمجاهدة والاستعانة بالرَّبِّ، والأخذ بالأسباب الَّتي تقدَّم بيانها يتيسَّر ويصبح سهلاً على النَّفس، وتنقلب مرارةُ مجاهدة تركه حلاوةً في القلب، وانشراحًا في الصَّدر، والمعصوم من عصمه الله، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

○ ○ ○

يُهدى ولا يُباع

سلسلة مطويات الفضيلة (10)

الأسباب المعينة على ترك المعاصي

عباس ولد عمر

دار الفضيلة

طبع على نفقة أحد المحسنين جزاه الله خيرًا